الجزء السادس

الفصل السابع

وثقلت الأحزان في صدر سلمى.. وودت لو تجد متنفّسا في البكاء، وحين وصلت السيارة منزله، طلب اليها ملحا أن تتناول الطعام معه ومع ذويه، فاعتذرت لأنها بحاجة لشراء بعض الأغراض.. واستأجرت تاكسيا بعد أن اشترت مروحة كهربائية وباقة من الزهور وفاكهة طازجة وسكاكر وفطائر ومجلات ملونة بثمن غال، فمظهرها يغري بلطشها، وما كانت تحسن الشراء في بلد مساوم.. ولكنها لم تكن آسفة وهي تفكر أنها تركت بضعة أشخاص مسرورين بغبائها، فعامل الزمن أهم لديها من كل اعتبار..

وحين توقفت السيارة عند باب المصح، كان المرضى قد أووا الى فراشهم في راحة بعد الظهر.. والعمال المشغولون في بناء الطابق الثاني، قد توقفوا عن عملهم حتى لا يزعجوا النيام.. وهرع اليها أحد الخدم وحمل الأغراض عنها.. وسارت على أطراف أصابعها الى غرفة أختها ولكنها لم تكن نائمة.. وعلى سريرها وتحته كرات الأكسجين الممتلئة والفارغة.. ووالدتها قربها تفرغ الهواء في رئتيها.. وسهى واجمة في سريرها.. وعبد الرحمن في الشرفة مرتكز الى الحاجز، عاقد ذراعيه، واجم، شارد الفكر..

واقتربت بسكون مقبلة جبينها، فابتسمت لا تقوى على الكلام، وكلما شعرت بالإختناق هتفت مذبوحة الصوت:

- هواء، هواء! فتفتح لها والدتها كرة أخرى تعب منها كظمآن ضل في الصحراء وحين أشرف على الهلاك عطشا وجد نبع ماء.. فكما يعب منه كانت رجاء تعب من الهواء فتعود اليها الحياة وتبتسم وتهمس:

- أخبريني عن كل ما حدث في نهارك بالتفصيل..

وتنشط سلمى للحديث ويضفي خيالها الخصب على الحوادث التافهة روحا فكهة.. ولكنها تخشى أن تضحك أختها وتود لو تصمت إثر كل أزمة، ولكن رجاء تحثها على الإستمرار، وكأنما يعزيها أن تتصور العالم الحركي الذي حرمته..

ودخل الطبيب وهي في تلك الحال.. ولم ينبس بحرف.. ولمحت سلمى دموعا في عينيه أخفاها بنظارته الشمسية، ووقف مع أخيها شاردا برهة ثم أخـذا يقطعـان الشرفة جيئة وذهابا منهمكين في الحديث..

ورن الجرس.. وصحت المريضات، وانتشرن في الشرفة، فعاد الطبيب الـى مكتبه.. أما رجاء فقد كانت حالتها تزداد سوءا، ويتلون وجهها بازرقاق غريـب يتلاشى سريعا.. وتزداد لجاجة في طلب الهواء ملتقطة أنفاسها كأنها على آخـر رمق..

الهواء!.. أرخص ما في الوجود يغدو أندره وأعزه عليها!.. وغشيتها غاشـية من الإختناق، وراحت تتلوى بغير شكوى، وعندما فتحت لها سلمى كرة أخرى لم يعد الأوكسجين يؤثر بها ويعيد اليها بعض الراحة..

ووقفت سلمى جامدة النظرات.. لاهثة الأنفاس.. مختنقة زفراتهـا الحبيـسة.. وانسحبت الى مكتب الطبيب وهوت الى المقعد، وهي تعض شفتها وتكاتم الدموع التي انهمرت بالرغم عنها على وجهها..

- إفعل لها شيئا يا دكتور!.. إفعل لها شيئا.. انها تتعذب!.. وأجابها نافضا يديـه وقد ترقرقت دمعة بين أهدابه:
- سلمى لا فائدة.. انها ستموت! كنت مثلك أكذّب الحقيقة.. وأموه على نفـسي لأنني لا أقوى على احتمال فكرة موتها.. فلنواجه الواقع الآن أنا وأنت.. لقـد جئنا متأخرين جدا لإنقاذها.. متأخرين جدا.. فتهتف منتحبة:
- خفف عنها إذن.. لا تتركها تحتمل هذه الآلام!..
- طبعا، طبعا.. وهمس الى الطبيب المتمرن بشيء فترك الغرفة.. وسـيطرت عليه الحاسة العملية فسأل:
- أين ستدفنونها ياسلمى.. أفي دمشق أم اللاذقية؟

ولمست الكلمات جراح سلمى كشوك الصبار، وانتفضت كمن يصحو فجأة من نوم ثقيل مستغرق.. إذن لا شك في النهاية العجلى.. وأجابت تغص بدموعها:

- أحقا ما تقول؟.. فهز برأسه..
- في دمشق.. فمثوى رجاء سيكون حجي!..

وتنهد بأسى وهو يمسح دمعه..

- ما هذه الحياة؟ سلمى لا تبكيني.. لا أستطيع تصورك باكية.. إنـك تمـزقين قلبي..

واقترب منها يكفكف بمنديله عبراتها الصامتة بحنان.. وقرب الحزن المشترك بينهما.. إنها تحب كل من يحب رجاء ويذرف لأجلها عبرة..

وتتمالك شجاعتها فتنفلت منتصبة على قدميها:

- أنت على حق لا يجب أن ترى رجاء أثر بكائي.. ولن أضيف لآلامها جديدا..

وذهبت الى العمارة تغسل وجهها.. ولما اطمأنت الى مظهرها البريء، والى قدرتها على الإبتسام، دخلت الى غرفة أختها، فرأتها نشيطة مستبشرة.. وهتفـت بصوت لم يفارقه الوهن:

- انني سعيدة.. هذه الإبرة عظيمة.. انني لا أشعر بألم، ولم أعد بحاجـة الـى الأكسجين..

واستبشرت الوالدة وعبد الرحمن وهتفا:

- الحمد لله!.. وشاركت سلمى بالتمويه وهي تقول لنفسها أن من الخيـر أن لا تفقد رجاء الأمل حتى النهاية.. واقتربت منها وهي تقتلـع اللهجـة المرحـة المتفائلة:

- نعم، انه دواء جديد.. آخر ما توصل له الطب.. وصل اليوم من ألمانيا.. لقـد نال الشفاء به كثيرون.. وابتسمت رجاء ابتسامة معنوية وهمست:

- نعم، انه دواء عظيم.. انه آخر نوع من المورفين يا سلمى.. ولكنني سعيدة.. انني لا أتألم.. وسأقوى على محادثتك الليلة.. فلم يعد بيننا من حاجز!..

فكانت الكلمات نهاية الإحتمال.. وخرجت سلمى الى الشرفة بغيـر أن تنـبس بحرف.. تصر على أسنانها، خجلة أن تستسلم لعاصفة بكاء مجنونة تمـور فـي صدرها.. ومرت الممرضة التي تزرق رجاء الأبر، فأشارت اليهـا أن تقتـرب، فجلست قربها على المقعد:

- انك لم تفارقيها طوال المدة الأخيرة كما خبرت، فماذا كانت تفعل رجاء فـي المدة الأخيرة؟.. وأجابت الممرضة:

- لم نكن نسمح لها بالحركة، وكنت وسهى ننسج لها جرزة صوفية، ونستمع الى أغاني المذياع.. أما هي فكانت مشغولة بترجمة قصة عن الإنجليزية.. وسألت سلمى بقلق:
- ما هو موضوع القصة؟
- نسيت أكثرها.. ولكنها عن أختين أحبت كلاهما شـابا فـأرادت احـداهما أن تموت لتسعد أختها.. وصعقت سلمى وهي تهمس لنفسها:
- أتراها تظن..؟ يا للمجنونة الصغيرة ان كان هذا ما دار في خلدها!
- واستمرت الممرضة بقولها وقد ذكرت حديثا آخر:
- سمعتها مرة إثر غشيتها تقول لـسهى "هـل تحـسبينني أمـوت؟ ان سـلمى تحيبني!..
- ومسحت سلمى بيدها الدموع التي تحدرت على خديها:
- ما هو الدواء الذي كانت تتعاطاه قبل غشيتها؟
- انها حبوب خضراء.. شفي بها عدد في قسم الرجال، وكذلك السيدة نجاح في قسم النساء، وكانت تلح على الطبيب أن يعطيها منها..
- ومنذ متى كانت رجاء تتعاطاها؟
- منذ شهر تقريبا، ولكن رجاء لسوء حظها لم تحتمل الدواء!..

وأطلّت سهى من الباب تبحث عنها، وتقدمت منها وهي تقول:

- انها تناديك يا سلمى وتقول "ان حبيبتي سلمى تبكي.. لا تتركوها تبكي.. لتأتي وأراها"..

واستنشقت سلمى الهواء ملء رئتيها حتى أحست بهما تنفجران.. وهدأت قليلا حتى زال ما ينم عن بكائها.. وعادت الى عزيزتها الغالية مكتوية الفؤاد.. فـرأت والدتها تسقيها كوبا من عصير البرتقال وتلقمها..

ووقفت سلمى ترمقها من بعيد وهي تأكل بشهية أعادت الأمل الى والدتها، وقد أمسكها رعب بارد "أتراه التوهج الأخير؟ لكأنها في غيبوبة!".. أما رجاء فراحت تهتف بلهجة لا واعية:

- سأنام الليلة نوما عميقا.. فلا تخشي علي يا ماما.. أين سلمى؟ دعوني أراها!

- انني هنا يا رجاء!
- وراحت تبتسم وهي ترسل لها القبل على أطراف أصابعها كعادتها..

وحمد الجميع الله على التحسن المفاجئ.. ولم تترك سهى دعـاء معروفـا الاّ وتلته، ولكن اليأس كان يغلب التفاؤل في هتافها "انه كريم.. من يـدري؟.. مـن يعلم؟"..

- وعند المساء اذ حان وقت انصراف الزوار ذهبت الوالدة وعبد الرحمن أكثـر اطمئنانا من كل ليلة مضت.. ولم يكادا يذهبان حتى أبدلت لها سلمى بمساعدة سهى جميع الأغطية بمفارش بيضاء ناصعة أحضرتها لها الممرضـة مـن المستودع.. وغيرت ثياب النهار، ومسحت لها سلمى جسدها بقطن مغمـوس بالماء الفاتر والعطر.. وارتدت بيجامتها والـروب دي شـامبر الأرجـواني الطويل.. وأدارت المذياع الى موسيقى رقيقة، وجلست سـلمى الـى طـرف سريرها وهي تفرك لها يديها الباردتين:
- رجاء كيف تشعرين؟
- سلمى هل تذكرين، قصة الصيني صانع الأجراس؟ كنت أفكر فيها طويلا في المدة الأخيرة.. سلمى أتمنى لك الحياة المديدة وأريد أن أحيا فيك.. هذا عزائي الوحيد.. لن يصهر الناقوس متينا لا شائبة فيه الاّ بقطرات مـن دم عزيـز.. وحينذاك يرن صداه في الفضاء ويبلغ القلوب.. عديني أنك تحرصـين علـى حياتك.. عديني أن لا تقذفي بنفسك في جحيم الحزن.. ولا ترتدي الـسواد.. ولا تهجري زينتك.. ولا تفعلي كلّ الـسخافات التـي يفعلهـا ألآخـرون.. ويشوهون بها حياتهم القصيرة على الأرض.. لن نفترق.. فليس بين المـوت والحياة حد فاصل..
- كفى يارجاء! لا تفكري هكذا أرجوك!
- لا أخشى الموت.. فان كان سكونا فلا يخشى السكون.. وان كان مـن سـر وراء الحياة.. ستبقى روحي على اتصال بروحك.. دائما وأبدا..
- وأراحت وجهها على وجه أختها البليل:
- هل تبكين؟ حبيبتي سلمى لاتبكي!..

وتنتصر سلمى على نشيج روحها بجهد جبار:

- رجاء انك نادرة.. شجاعتك تلهب دماء بطل.. ولكن لا تفكري بهذا الأسلوب.. انه بعيد.. لا.. لاتذهبي بهذه السرعة.. انك في السابعة عشرة.. فـي ربيـع العمر.. وجسدك سيقاوم!..

ودخل الدكتور وما أن لمح شحوب الموت في وجه رجاء حتى دمع.. ونقّـل عينيه بين الأختين فابتسمتا.. وتمتمت رجاء بشيء فقالت سلمى:

- انها تسألك ان كنت تحب أن تسهر معنا الليلة لـسماع حفلـة أم كلثـوم فـي رباعيات الخيام.. وأجاب بأسى لم يخفيه:
- بعد العشاء!

وغمغمت رجاء مرة أخرى وهي تبتسم، فقالت سلمى:

- رجاء تقول بأن الوجوم لا يلائمك.. وانفردت أساريره ليرضيها:
- لقد غلبتني رجاء وبهرتني!
- وكان الحارس الليلي يتردد من حين لآخر ليشاهد نهاية المأساة، ووقف فـي ركن الغرفة يضرب كفا بكف، ويقلبهما ويرفعهما متضرعا يـارب.. إجعـل النهاية سهلة عليها!..

ولقد أضحك رجاء منظره، فلم تقو الاّ على إصدار حشرجة واهنة وهي تشير اليه بعينيها، وتغمغم بما لم تسمعه سلمى، فتطفئ المذياع:

- لا.. لا.. أريد أن أحاط بالموسيقى.. والإبتسام.. والزهر.. ومن أحبهم..
- وتنظر في ساعتها، ولكن غشاوة رقيقة تحجب عنها الرؤيا.. وتسأل دهشة:
- هل النور ضعيف، أم أن عيني... وتجيبها سلمى مؤكدة:
- بل النور ضعيف.. لا بد أن هناك خلل في مصلحة الكهرباء.. ووافق الطبيب على قولها.. والتفتت سلمى لتخفي دمعة مترقرقة وهي تدير المـذياع ذاهلـة فيرن صوت المطربة الكبيرة:

هيا املؤوا كأس المنى قبل أن تملأ كأس العمر كفّ القدر

وابتسمت سلمى، وقد عض قلبها الأسى: "من كان يظن أننا سنسمعها معا!"

وتململ الطبيب في موقفه، وود الهرب قبل أن ينفجر انفعاله، فقطنت اليه رجـاء وقالت:

- دكتور.. إجذب هذا الكرسي واجلس.. انك غير مرتاح..

ونظر الى سلمى بتضرع أن تعفيه.. فشعرت بما يعانيه من ألم الموقف.. انـه لا يطيق إطالة النظر الى سيماء التلاشي في وجه من يعطف عليها عطفا صـادقا.. لقد شعرت هي مثل هذا الشعور، ولا تزال تشعره، ولو أنه اسـتغرق الآن فـي ذهول مهد لها احتماله..

ويتراءى لخيال سلمى نور يشع من الإبتسامة الجليلة على الفم الصغير الجميـل، ولا ترى سواها..

- دكتور! أحسبك نسيت أن تتناول عشاءك.. ولكنك سـتعود، ألـيس كـذلك؟..

ويتلجلج بالقول وهو يغمغم:

- طبعا، طبعا!..

ويلتفي وهو خارج من الغرفة بسهى تحمل قربة ماء ساخن فيقول لها:

- يجب أن تبتعد سلمى عن أختها.. هل تحسب أنها تملك المناعة الكافية لتنجـو من خطر هذا الإقتراب؟..

وعندما تهمس لها نجمة بالكلمات، تخلع حذاءها، وتسأل رجاء:

- هل أزعجك اذا استلقيت قربك ووسدتك ذراعي؟..

انها تود أن تعلم كيف يجرؤ الموت أن يختطفها منها.. كيف، كيف! وتجيب رجاء مغمغمة وهي تبتسم:

- لا بأس.. اقتربي مني يا سلمى!..

- أما سهى التي لم ترقأ لها دمعة، فانها جثت لتبدل القربة من سرير رجاء وهي تنتحب، وتجفّف دمعها بكمها.. فغمغمت رجاء:

- سلمى.. لاتنسي سهى! وتجيب سلمى:

- لا يا رجاء لن أنساها.. لا يمكنني أن أنسى من تعزهم حبيبتي رجاء!..

- سلمى.. أطرافي مخدرة.. وقدماي مثلجتان..

وتفرك سلمى قدميها، وسهى يديها.. ولكن الحرارة لا تعود.. انها تنسلّ رويـدا.. رويدا..

وتضم سلمى كنزها الثمين الذي يجذبه الجزر الى الأعمـاق وتتبـادلان القبـل، والإبتسامات الدامعة:

- حبيبتي رجاء!..

- حبيبتي سلمى!..

ولم يبق سوى تلك الكلمات ترددانها، حتى انسلت آخر شعاعة من روح رجـاء، وطارت الى عالم غامض الأسرار..

وانتفضت سلمى واقفة تتأمل الوجه الناعم وقد كساه الشحوب.. أهذا هو الموت؟.. لا يارجاء!.. هذه لعبة.. لعبة تختبرين بها مقدار حبي.. انك تعبثين بي يا رجاء!

واجمة وقفت سلمى كتمثال.. لمَ تصيح سهى وتنتحب، وهذا الجرس يملأ رنينـه الفضاء في سكون الليل؟

سلمى!.. أحقا انتهى الأمر، وانحل ما كان زاخرا بالحياة، فأمسك منـك اللـسان، وانعدم الفكر وخمد الإحساس؟.. "مابي؟.. وكأن النرفانا الذاهلة قد غمرتني في لا شعوريتها.. أيمكن أن يكون أعنف الأحزان عند الإستسلام أخف وطأة من عذابات الحزن القلق؟.. ما الموت؟.. سكون وهل يخشى السكون؟ لا لغز يحيـر وراءه.. ولو كان لما عقل لسانك عن كشفه لي، وما صمتّ حتى سكنت آخر اختلاجة من أنفاسك اللاهثة..

نامي يا صغيرتي نامي.. فما الموت الاّ نوم أبدي.. أما أنا فلا تعزية لي عنك.. لا أحب التعازي السمجة من نفوس مشفقة.. أتركوني! هل تريننني أنتحب وأعـول؟ هل تريننني فقدت صوابي حتى أكون بحاجة الى عطف؟..

لا تخشى علي يا دكتور.. فلن يصيبني مكروه!.. لا تجر بي بعيدا.. دعني هنـا أفهم ما حدث.. لست أدرك الاّ أن هذا الوجه الحبيب قد شحب.. وهذه الممرضـة تحجب العينين المغمضتين وسهى تنتحب..

لم تجذبني وتسندني اليك وصوتك متهدج وصدرك مضطرب؟ دعني! فقدماي لـم تخذلاني بعد، وان سمرتا كأنهما مثبتتان الى الأرض..

هذا الصنم يتحرك ويسيرمعكم الى حيث تريدون.. شكرا لكم.. هذه النار تـركض الدماء في جسدي المرمري المثلج.. تركتها هناك.. ولا تزال الساعة تنبض فـي يدها وقد توقف قلبها عن النبض!.."سأنام الليلة يا ماما نوما عميقا".. مسكينة ياماما كم كنت متفائلة! لقد تجرعت أنا الألم قطرة قطرة، أما أنت فغدا كأسك مترعـة.. ما بالكم واجمون؟.. وما بالي قد شلّ قلبي وحم رأسي؟.. لكـأنني أمثـل دورا لا أحسنه.. أليس في الموت ما يهيج الحزن ويسيل العبرات، فما بـالي قـد جفـت مآقي؟.. ولكن من مات؟.. أيها العقل.. لعله أحد رؤاك الصافية ما تراه الآن!

لم تلتزم الصمت يا دكتور، وقدمك تهتز في عصبية.. حسنا فعلت.. فأنت أحكـم من أن تلقي الكلام على عواهنه.. ولكن هل نجلس هكذا مطرقين حتى الصباح؟.. تكلّم وانقذ قلبي من أنياب كآبته الموحشة.. لا يوهمنّك تجلدي احتمالي.. ان روحي تتلوى وتصيح كمن مسته نار.. ولكن كبريائي خرساء.. لا تتركني قبل أن تبـزغ الشمس فيخف شعاعها حلكة أعماقي.. انني أخاف.. أخـاف الوحـدة.. رأسـي محموم، وعنقي خدره الإلتواء، وجسدي يرتعش.. فهل خمدت النار في المدفأة؟

وترفع رأسها وتقول:

- دكتور يجب أن تأخذ نصيبك من الراحة..

وتخدش كلماتها السكون الخاشع.. فينظر اليها بعينيه الحزينتين:

- وأنت يا سلمى؟
- سأبقى هنا وأحاول أن أنام!
- سلمى.. لقد ارتاحت.. هل كنت تحبين لها أن يطول عذابها؟ وتهـز رأسـها بأسى:
- لا..
- ماتت كالأبطال.. وسنذكرها ما حيينا بخشوع وإعجاب..
- أردتها أن تعيش كالأبطال.. تخدم روحها القوية الحياة لا الموت!..
- ماذا في هذه الحياة يستحق الأسف لفراقها؟ انها أسعد حظا منا نحن الأحياء..
- انني لا أعزى بمثل هذا الإيمان.. لماذا ماتت، لماذا ماتت؟

وتصمت سلمى.. فيتدارك الصمت ويردف:

- رجاء لا يمكن أن تموت من نفس من عرفها.. ألف حادثة ستذكرنا بها.. وأنت يا سلمى.. كيف تنظرين الى الأرض وأفكارك تحلقّ في الأعالي!.. هل نسيت أهدافك البعيدة؟ أكاد أجزم أن الحياة تعدك لأمر.. وأنها ألقت عليـك واجبـا ثقيلا.. وما تسير بك في دروب الألم لغير غاية!

وتهم سلمى بالكلام فيردها الزهد فيه "غاية!.. وهل للحياة غاية؟.. ألسنا نحن من نقيد خبطها بالأهداف، وندعي لها الحكمة؟..ستحثني الذكرى بمهماز مؤسـل من نار، يلذّع الى العمل قلبي لو توانيت.. ولكنها إرادة من لو اكتفيت أن أغتـسل بالدموع واتّشح بالقتام؟

"لا بأس يا أختاه.. سأجعل لمصيرك غاية تتمنين ثمنا لها مـصيرك لـو نعمـت بالحياة!"..

ويعود الطبيب يستحثها الى الكلام وقد خشي تراكم ثلج الصمت مرة أخرى.. ولكن سلمى كانت في شبه غيبوبة تضع رأسها بين يديها ولا تجيب..

وينادي الحارس ليؤرج المدفأة.. ويهيئ لها مناما في الغرفة نفسها، وتنتبـه مـن أحاسيسها المغرقة على الحارس، وهو يريد أن ينتزع حـذاءها.. فتـرد قـدمها بخجل.. فيشير اليه الطبيب أن يتركها ويذهب.. ويتقدم نحوهـا ويرفـع رأسـها بعطف:

- سلمى.. انه ليس اقتراح.. انه رجاء حار أن تستلقي في فراشـك.. فالوضـع فالوضع المريح للجسد والدفء يخففان من أعباء النفس..

فتنصاع لرغبته.. ويرد عليها الأغطية بحنان.. وتـشعر بـشيء مـن الإرتيـاح وقدماها المقرورتان تلمسان قربة الماء الساخن.. ولكنهـا لا تلبـث أن تنـتفض انتفاضة من مس سلكا مكهربا، وهي تتمثل نزوح أختها الغالية التي كانت عالمها وإلهامها الى مرقدها الجافي المقرور تحت التراب!

وتنظر الى السقف، وقد تأرجحت في عينيها دمعة لم تضن الغدة النزور بغيرهـا، فالتقت عيناها بعيني الطبيب الذي مال فوقها، وهو يجذب الغطاء الى مـا فـوق كتفيها، ويقول:

- سأترك لك النور مضاء!..

وتتابعه بنظراتها بقلق وهو يترك الغرفة بمعطفه الليلي الخمري..

* * *